

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس (04-60): تفسير الآيتان 8-9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-12-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع من دروس آل عمران ، ومع الآية الثامنة ، وهي قوله تعالى :
(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ:

المعنى الأول :

أيها الإخوة ، قال علماء التفسير : ما دام الله جل جلاله يأمرنا أن ندعوه لنلا تزيغ قلوبنا ، معنى ذلك أن الأمر بيدنا ، يؤكد هذا المعنى أن الله عز وجل يقول :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : من الآية 5)

معنى (زاغ) أي انصرف إلى شيء آخر غير الدين ؛ انصرف إلى الدنيا ، انصرف إلى معصية ، انصرف إلى متعة رخيصة ، أو توجه إلى جهة شريكة لله عز وجل ، أي كان متجهاً إلى الله فزاغ قلبه ، اتجه إلى غير الله ، كان مقبلاً على طاعة ، فزاغ قلبه ، فأقبل على معصية ، كان محسناً ، فزاغ قلبه ، فأساء ، كان طاهراً ، فزاغ قلبه ، فأنحرف ، لأن الله عز وجل يأمرنا أن ندعوه ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ ، كَقَلْبِ وَاحِدٍ ، يُصْرَفُ كَيْفَ يَشَاءُ

، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ : مُصْرَفَ الْقُلُوبِ اصْرَفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ))

[مسلم وأحمد]

ينبغي أن نفهم هذا الحديث فهماً دقيقاً جداً ، أي أن الله عزَّ وجل جعل قلوبنا بيده لسبب واحد ؛ من أجل أن يعيننا على إيماننا ، فلو أن أحدنا أراد شيئاً طيباً ، ملأ الله قلبه انشراحاً ، وإذا أراد أحد الناس سوءاً ، ملأ قلبه انقباضاً ، فلأن القلب بيد الله عزَّ وجل ، يعطينا دفعة التشجيع ، أو دفعة ردع ، يجب أن نفهم هذا الحديث :

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ ، كَقَلْبِ وَاحِدٍ ، يُصْرَفُ كَيْفَ يَشَاءُ))

يملؤها ثقة ، وطمأنينة ، وأمناً ، وراحة ، أو يملؤها خوفاً ، وقلقاً ، وانقباضاً ، فإن كان القرار صائباً ملأها أمناً ، وراحةً ، وانشراحاً ، وإن كان القرار مخطئاً ملأها خوفاً وقلقاً ، فإذا أردت أن تجمع بين هذه الآية وبين الحديث الصحيح ..

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ كَقَلْبِ وَاحِدٍ يُصْرَفُ كَيْفَ يَشَاءُ))
لصالحنا ، في صالح إيماننا .

المعنى الثاني :

هناك معنى آخر : أنت حينما ترى من هو أقوى منك لا ينبغي أن تخاف ، لأن قلب هذا القوي بيد الله ؛ فإما أن يملأه عطفاً عليك ، وإما أن يملأه حقداً عليك ، فقلبه بيد الله لا تخف منه ، خف أن يسمح الله له أن يصل إليك ..

(وَلَا أَحَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا)

(سورة الأنعام : من الآية 80)

إذا شاء الله لقوي أن يتسلط عليك ، تسلط عليك ، إذا لا تخف من القوي ، بل خف أن يسمح الله له لأن قلبه بيد الله ، هذا المعنى الثاني .

ذكرت لكم سابقاً أن الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى أدى أمانة التبيين ، والعلماء مكلفون من قِبَلِ الله عزَّ وجل أن يبينوا ، بَيِّن ، بلغت الحجاج مقالته ، فقال : والله يا جناباً لأروينكم من دمه ، وأمر بقتله ، بكلمة ، فجيء به لِيُقْتَلَ في حضرته ، فلما دخل هذا الإمام الجليل على الحجاج رأى السيِّف واقفاً ، والنطع ممدوداً ، وكل شيء جاهزٌ لقتله ، فحرك شفتيه ، ولم يفهم أحدٌ ماذا قال ، فإذا بالحجاج يقف له ، ويستقبله ، ويقرب به ، حتى أجلسه على سريره ، واستفتاه في موضوع ، وضيئه ، وعطره ، وشيئه إلى باب القصر ، صُعِق السيِّف ، وتبعه الحاجب ، فقال له : يا إمام لقد جيء بك - اسمه أبو سعيد - قال له الحجاج : أنت يا أبا سعيد سيد العلماء ، تبعه الحاجب ، قال له : يا إمام ، لما دخلت

حرّكت شفّيتك ، فماذا قلت بالله عزّ وجل ؟ قال له : قلت : يا ملاذي عند كربتي ، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نعمته عليّ برداً وسلاماً ، كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم .
أقوى الأقوياء قلبه بيد الله ، والله عزّ وجل قادر أن يلهم عدوك أن يخدمك ، وقادر أن يجعل أقرب الناس إليك يتناول عليك ، لأن قلوب العباد بيد الله ، فأنت علاقتك مع الله ..
**(فِكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا
إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))**

(سورة هود)

فعلقتي ليست مع الدواب ، ولكن مع مَنْ بيده ناصية الدواب ، فإن أرخى الزمام وصلت إلي ، وإن شدّ الزمام أبعدها عني ، هذه حقيقة في التوحيد مهمة جداً ، الأرض مليئة بالأقوياء ، مليئة بالأشرار ، مليئة بالحاقدين ، مليئة بالكفار ، مليئة بفساة القلوب وهم لا يرحمون ، ولكن قلبهم بيد الله ، فإذا أرد الله لمؤمن خيراً ألقى هيبته في قلوب الأقوياء ، ف :

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصْرَفُ كَيْفَ يَشَاءُ))

يقلبها لصالحك ، يملؤها رضىً ، وأمناً ، واستبشاراً ، وتفاؤلاً حينما تصطح مع الله ، ويملوها خوفاً ، وضيقاتاً ، وقلقاً حينما تبتعد عن الله ، ف..

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصْرَفُ كَيْفَ يَشَاءُ))

أما قلوب الآخرين أيضاً بيد الله ، فإما أن تمتلئ محبة لك ، وعطفاً عليك ، ورغبة في خدمتك ، وإما أن تمتلئ نقمةً ، وحقداً ، وقسوةً .

الإنسان مخير :

إذاً : هذه الإزاعة التي ندعو الله ألا تكون هي إزاعة القلب الابتدائية ، أما الإزاعة الجوابية الجزائية فهذه من عند الله عزّ وجل ، فحينما تختار المعصية - لا سمح الله - فالله عزّ وجل بحسب هويتك أنت مخير ، جاء بك إلى الدنيا ، وأنت مخير ، لأن هويتك مخير ، لأن أصل تركيبك مخير ، إذاً : يسمح الله لك أن تتصرف إلى ما أردت ، فسمح الله لك أن تتصرف إلى ما أردت هو إزاعة الله .

ومثل ذلك كممثل طالب في الجامعة لم يقدّم امتحاناً ، ولا عرف داوماً ، ولا اشترى كتاباً ، ولا التقى المدرس ، أرسل له إنذار تلو الإنذار ، فأصر على موقفه ، بعد كل هذه المحاولات لإرجاعه للجامعة ، صدر قرار لترقين قيده ، فهذا القرار تجسيداً لرغبة هذا الطالب ..

(فَلَمَّا زَاغُوا)

(سورة الصف : من الآية 5)

انصرف إلى الدنيا ، إلى المعصية ، لم يعبأ بالتوحيد ، لم يطلب العلم ، أراد الشهوة ، الآن ، سمح الله له أن يحقق رغبته ، سماح الله له أن يحقق رغبته هو الزيغ الذي جاء في هذه الآية ، أقوى دليل :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

وقس على هذا كل شيء ، قس على هذا إذا وجدت في القرآن آية يُشَمُّ منها أن الله يضل العباد ، إذا قلت : إن الله يضلهم ، أي ذلك الضلال الجزائي ، المبني على ضلال اختياري ، أنت مخير ، وفي اللحظة التي تفقد فيها اختيارك تلغى هويتك ، وتلغى الأمانة ، ويلغى التكليف ، وتلغى المسؤولية ، ويلغى الثواب ، ويلغى العقاب ، وتلغى الجنة ، وتلغى النار ، لمجرد أن تفقد اختيارك ، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، لو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة ، إن الله أمر عباده تخبيراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلف تسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، ولم يُعصَ مغلوباً ، ولم يُطعَ مكرهاً .

إذا :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

هذه الإزاغة الجزائية ، التي هي في حقيقتها سماح الله لك أن تفعل ما أردت ، فأنت مخير . مثل أوضح ، أنت صيدلي ، وبحاجة إلى موظف يعينك في فتح الصيدلية ، هذا الموظف يجب أن يكون على علم بالأدوية وخصائصها ، أعلنت عن مسابقةٍ ، وجاءك عدد من المرشحين لهذه الوظيفة ، الآن تمتحن أحدهم ؛ وضعت له مجموعة أدوية على الطاولة ، قلت له : وزّع هذه الأدوية وفق أنواعها؛ السموم ، والفيتامينات ، والمسكنات .. إلخ ، أنت الآن تمتحنه ، فأمسك هذا المرشح للوظيفة علبة دواء سموم ، واتجه إلى خزانة الفيتامينات ، لو أنك منعت ما فحصته ، ينبغي أن تسمح له أن يذهب حيث يشاء ، هو في طور امتحان ، أنت الآن تمتحن علمه ، أمسك علبة دواء سموم ، واتجه بها إلى خزانة الفيتامينات ، سماحك له هو إزاغتك ..

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

أي سمح لهم أن يتجهوا الوجهة التي أرادوها ، واختاروها من عند أنفسهم ، يقاس على ذلك كلمة الضلال ، فأينما عُزيت كلمة الضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري ، ف..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

لماذا يقول الله عز وجل :

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

(سورة الإسراء : من الآية 80)

لماذا ؟ لأنه قد تدخل مدخل صادقاً ، ولا تخرج صادقاً ، لم لم يقل الله عز وجل : رب اجعلني صادقاً ؟ لا ، المعنى دقيق ، آلاف الحقول قد تدخلها صادقاً ، ولا تخرج منها صادقاً ، أنت قد تنشئ مستشفى خيرياً ، ثم ينقلب هذه المستشفى إلى مستشفى ابتزازي يبتز أموال الناس بالباطل ، يمكن أن يبدأ المشروع خيرياً ، ولا ينتهي خيرياً ، يمكن أن تبدي دعوة بإخلاص شديد ، ولا تنتهي هذه الدعوة بالإخلاص الذي دخلته فيها .

إذا :

(رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

معنى ذلك أن الإنسان عليه أن يبقى مستعداً لأية معركة مع الشيطان ، الشيطان لا ييأس ، ولكل طور من أطوار الإيمان شيطانٌ يثبط عزيمة الإنسان ، حتى إذا بلغت قمة النجاح يغريك الشيطان بالغرور ، كل نجاح له مطب ، فيجب أن تكون يقظاً .

كنت أقول : بلوغ القمة صعبٌ جداً ، طريقٌ وعر ، صعب ، التواءات ، حُفر ، أكمام ، حتى إذا بلغت القمة هناك مطبٌ خطير - مطب الغرور - والغرور طريقٌ إلى القاع ناعم الملمس ، تنزلق به سريعاً إلى القاع ، فقبل الزواج هناك مطبات ، وبعد الزواج ثمة مطبات ، عندك أولاد فثمة مطبات ، لا ولد لك فثمة مشكلة ، رزق وفير مشكلة ، قليل مشكلة ، ف ..

(رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

الإنسان عليه أن يؤمن ، وعليه أن يصون إيمانه ، وعليه أن يجدد إيمانه ، والإيمان يخلق في جوف بني آدم ، ويهترئ ، فلا بد من تجديده ، والتجديد يكون بأن ترفع مستوى طلب العلم ، والتجديد يكون عن طريق المبالغة في الاستقامة ، والتجديد يكون عن طريق العمل الصالح ، أن تزداد علماً ، وأن تزداد انضباطاً ، وأن تزداد عطاءً ، بهذا يتجدد الإيمان ..

(رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

الرحمة :

فكلمة (رحمة) كلمة جامعة مانعة ، مطلق عطاء الله أن يرحمك ، يرحمك فيسبغ عليك صحة ، يرحمك فيملاً قلبك أمناً ، يرحمك فيسمح لك أن تتصل به ، يرحمك فيذيقك من حلاوة القرب ، يرحمك فيعطيك الحكمة ، لو تحدّثت عن الرحمة ساعاتٍ وساعاتٍ لا تنتهي منها ، رحمة الله مطلق عطاء الله . هنا يحضرني ..

(وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32))

(سورة الزخرف)

في شركات عملاقة ، فائضها النقدي يفوق ميزانية مجموعة دول ، فائضها النقدي فقط ..

(وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

رحمة الله تعني الأبد ، تعني سعادة إلى أبد الأبد ، رحمة الله تعني جنة فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، رحمة الله في الدنيا هذا الأمن الذي يناله المؤمن ..
(فَايُّ الْقَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

أي إذا قلت : يا رب ارحمني ، فهو دعاء واسع جداً ، أي يا رب أصلح لي جسدي ، يا رب يسر لي رزقي ، يا رب اجعل أهلي على خير ما يرام ، اجعل زوجتي سالحة ، اجعل أولادي أبراراً ، يا رب صلني بك ، ارزقني عملاً صالحاً يقربني إليك ، يا رب تجلى على قلبي ، يا رب أدقني طعم القرب منك ، هذا معنى ارحمني يا رب .
ويقول الله عز وجل :

(وَلَئِن مَّتَّ أَوْ قَتَلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ(158))

(سورة آل عمران)

إلى رحمته ، فأنت تقرأ النعي (إلى رحمته تعالى) ، كلمة فرغت من مضمونها ، أي مات فلان ، لا ، لا ، لو أنه مؤمن انتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا لكان كذلك ، لأن الدنيا كلها متاع ، فعن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري أنه كان يحدث :
((أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ فَقَالَ : مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاخُ مِنْهُ ؟ قَالَ : الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَدَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالِدَوَابُّ))

[متفق عليه]

كان عبداً ..

(رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

والقلب قلب النفس ، فعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[مسلم]

فالقلب منظر الرب ، وقد ورد في بعض الآثار القدسية : " أن عبدي ظهرت منظر الخلق سنين أفلا ظهرت منظري ساعة ؟ " .

أما يستحيي الإنسان أن يحقد بقلبه على أحد ، والله مطلعٌ على قلبه ؟ يا إخوان الكبائر الباطنة أخطر ألف مرة من الكبائر الظاهرة ، الكبر مرض قلبي خطير ، العُجب مرض قلبي خطير ، حب الذات مرض قلبي خطير ، أن تتوهم أنك أفضل الناس مرض قلبي خطير ..
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ)

(سورة النساء : من الآية 49)

هذا مريض الذي يمدح نفسه باستمرار .

إذا :

(رَبَّنَا)

دعاء ، وهذا من أدعية القرآن ، وحبذا لو جمعنا أدعية القرآن ، حبذا ، ودعونا الله بها ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

الإنسان معرضٌ للفتنة في أية لحظة ، يجب أن يكون يقظاً دائماً ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

(سورة النساء : من الآية 71)

من الشيطان ، فقد يأتي عن أيمنهم ..

(ثُمَّ لَا تِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

(سورة الأعراف : من الآية 71)

احذر مداخل الشيطان :

هذه موظفة مثلاً يجب أن تهديها إلى الله ، والله الظاهر أن فيها خيراً ، اقعد معها جلسات طويلة على انفراد ، لعل الله عزَّ وجل يهديها على يدك ، أنت داع ، هذه خلوة ، دع خيراً عليه الشر يربو ، وإن درء المفسد مقدّم على جلب المنافع ، لا مؤثرة في الخير ، والخير كله في المؤثرة ، أنا لا أضحي بديني من أجل امرأة ، فعن أيمنهم يوسوس له ، فعل خير فيه مطب ، فيه شُبْهة ، يا نصيب خيري ، وربع هذا اليناصيب للعجزة ، والله شيء جميل ! أدخله باليناصيب ، فدائماً الشيطان إذا رأى الإنسان على الإيمان فتجده أولاً يطمع بالإنسان أن يكفر ، فإن يؤس من أن يكفر زين له الشرك ؛ يوهمه أن هناك جهة بيدها كل شيء ، لا بد أن ترضيها ، لمستقبلك ولأولادك ، أوهمه أن هذه الجهة نُدُّ الله عزَّ وجل ؛ ترفع وتخفض ، وتعطي وتمنع ، وتعاقب وتكرم ، فاتجه إليها ، أغراه بالكفر فلم يستطع ، أغراه بالشرك فأفلح ، لو أن هذا الذي أغري بالشرك كان على توحيد لرماه بمطب ثالث ، يجعله يبتدع ، إنه لا بد أن نفعل هذا ، فما فعله النبي ، الدين تام مكتمل ، معنى هذا أن الدين وحي ، والذي أوحى هو خالق

الكون ، والله عزَّ وجل لا يمكن أن ينسى شيئاً ، فأية إضافةٍ على الدين اتهامٌ له بالنقص ، وأية حذفٍ منه اتهامٌ له بالزيادة ، فلمجرد أن تفكر أن تضيف شيئاً في عقائد الدين أو في عباداته فأنت متهم له ، وأنت تقول : لقد نقص هذا الدين أن أتممه .

فيدعو أولاً إلى الكفر ، فإن وجده على إيمان دعاه إلى الشرك ، إن وجده على التوحيد دعاه إلى أن يبتدع ، إن وجده على سنة دعاه إلى أن يرتكب كبيرة ، إن وجده على طاعة دعاه إلى أن يرتكب صغيرة ، إن وجده على ورَع ... فماذا؟! لا الكفر جاء عليه ، والشرك ، ولا البدعة ، ولا الكبيرة ، ولا الصغيرة ، الآن يدعوه إلى التحريش بين المؤمنين ، أنت كذا ، وأنا كذا ، والجماعة الفلانية ، يمزق الدين ، يمسك قضية صغيرة جداً يكبرها كثيراً ، ويقم عليها النكير ، ويقاوم من أجلها ، وهي في الإسلام حجمها صغير جداً ، لأسبابٍ تافهةٍ جداً نتحارب ، نتقاتل ، يطعن بعضنا بعضاً ، يكفر بعضنا بعضاً ، لأنه ترك مصدر علم من جهة ، ومال إلى جهة ثانية ، كَفَره وانتهى ، هذا كله مبالغة ، كله غلوٌ في الدين ؛ أن تأخذ جزئية صغيرة ، وأن تكبرها ، وأن تجعلها هي الدين ، هذا من فعل الشيطان ، فلا الكفر ، ولا الشرك ، ولا البدعة ، ولا الكبيرة ، ولا الصغيرة ، ولا التحريش بين المؤمنين ، كان واعياً هذا المؤمن ، يدخله في المباحات ، التوسُّع في المباحات حتى تمتص كل وقته ، وحتى يلقي الله صفر اليدين ، هذا ..

(ثُمَّ لَا تَبْنِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

(وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

.. المعاصي والآثام ، و

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

التقدم والحداثة ، والعلمانية، والتطوير ، والمجتمع المنفتح ، والعولمة ، ونحن بعصر العلم مع الاختلاط ، مع الانحراف ، مع التفكُّت ، مع الانحلال ، أو يتمسك بتقاليد قديمة جداً بالية تخالف الشرع ، هكذا رباني أبي ، وهكذا علمني ، هكذا نشأت ، على الاختلاط ، من غير محاسبة ، وكل إنسان يأخذ ما راق له من المحل ، فهم إخوة ، حتى يتقاتلوا ، فإما أن تبتدع تقاليد تخالف الدين ، أو أن تبتدع قيما حديثة جداً تخالف الله ، أو

(عَنْ أَيْمَانِهِمْ)

.. من باب الدعوة إلى الله ، أو

(عَنْ شَمَائِلِهِمْ)

.. من باب المعصية ، ولكن لم يذكر القرآن جهة علوية ، ولا جهة سفلية ، يعني أن الطريق إلى الله آمن من الشيطان ، وطريق الامتثال آمن أيضاً ، إن امتثلت إلى الله فأنت في أمان ، وإن أقبلت عليه فأنت في أمان ، والله ذكر أربع جهات :

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

إذاً : الشيطان هو الذي يسعى لإزاحة القلب ، لا بد من أن نكون يقظين ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

والله أيها الإخوة ، في قلب المؤمن رحمة ، كلمة رحمة واسعة جداً ، أي فيه طمأنينة ، وأمن ، وراحة ، واستسلام لله ، وشعور بالحقة ، ليس عليه أُنقال كالجبال ، ما ارتكب عملاً سيئاً ، شقي الناس ليسعد ، واقتدر الناس ليغتنى ، لا علاقة له بالمعصية ، ليس ثمة حقوق متعلقة برقبته ، فالقلب فيه راحة ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ

كلمة (وهاب) تعني بلا ثمن ، أي بلا ثمن مكافئ ، أما الثمن فبسيط ، أن تطلب ، أنت عبد فقير ، وضعيف ، ولا تعلم ، إذا أقبلت على الله عزَّ وجل منحك العلم ، منحك القوة ، منحك الحكمة ، فليس معقولاً أن تقدم طلباً بإخلاص ، ولجهة في الأرض ، وتقول : أريد أن تعطوني ألف مليون ، وقَّعت ، الألف مليون تأخذها بطلب فقط لا بجهد ، هذا معنى :

(إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

أنت في الدنيا تجد إنساناً عنده ثروة طائلة ، هذه بمقابل ، يقول لك : جهد أربع وخمسين سنة عملاً في التجارة ، مُتناً مليون موتة حتى حققنا هذه الثروة ، هذه الثروة مقابل جُهد ، أما ربنا عزَّ وجل فيعطيك عطاءً بغير حساب ، مقابل طلب فقط ..

(كَلَّا نُمَدِّهُ هُوْلَاءَ وَهَوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20))

(سورة الإسراء)

ما أنت فيه يعبر عن صدقك ، وما لم تصل إليه يعبر عن تمنياتك ، فالله عزَّ وجل لا يتعامل بالتمنيات ..

(لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ)

(سورة النساء : من الآية 123)

أنت تتمنى أن تكون أكبر تاجر ، تمنى أن تكون أكبر غني ، تمنى أن تكون أكبر عالم ، التمنيات ما لها قيمة عند الله عزَّ وجل ، والدليل :

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء : من الآية 19)

ما قال : وسعى لها ، لا يكفي سعى لها ، بل سعى لها سعيها الخاص ، نجح طالب في الطب ، الطب له علاماته الخاصة ، أما إذا كنت طالباً فهذه الكلية لها علاماتها الخاصة ..

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء : من الآية 19)

تحتاج إلى صدق ، إلى استقامة .

ويحضرني الآن كلمة رائعة : أنه ممكن أن تتعلم أمر الله ، أي إنسان ذكي عنده فكر ، وثقافة ، ولغة ، عنده كتب ، ومراجع ، وأجهزة يتعلم الشريعة ، ولو كان غير مسلم ، قد يكون زنديقاً ، قد يكون زانياً ، قد يكون شارب خمر ، قد يكون مُلحدًا ، إذا قرأ الكتب ، وفهمها ، واستوعبها ، وحفظها ، وربطها بعضها ببعض يمكنه أن ينجح في الامتحان ، فالعلم بأمره يستدرك بالمدارسة ، والعلم بخلفه يستدرك بالمدارسة ، اختصاص فيزياء ، وكيمياء ، ورياضيات ، وفلك ، وطب ، وهندسة ، وعلم اجتماع ، وعلم نفس ، وتاريخ تربية ، كلها علوم أرضية تحتاج إلى فكر ، وكتاب ، ومدرس ، ووقت ، ودارسة ، ومطالعة ، ولكن العلم بذاته يحتاج إلى مجاهدة ، تحتاج إلى غض بصر ، ضبط لسان ، تحرير دخل ، إنفاق في سبيل الله ، ضبط الهوى ، ضبط العلاقات كله تحتاج لإرادة قوية ، فالإرادة القوية ، والطاعة ، والمجاهدة ثمن معرفة الله عز وجل ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

لو أن إنساناً زاغ قلبه ، وانحرف سيره ، وغرق في الدنيا ، وجمع من الأموال المبالغ الطائلة ، ثم ماذا؟ جمع ألف مليون دولار ، (بيل غيتس) معه رقم فلكي قريب بالمليارات ، ثمانون أو تسعون مليار دولار ، ثم ماذا؟ ثم الموت ، وصلت إلى أعلى منصب في الأرض ، ثم ماذا؟ إلى الموت ..

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ

(رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

1- ثم ماذا إلا الموت ؟

فإذا شرد الإنسان ، وأراد الدنيا فقط ، وأعرض عن الآخرة ، فماذا ينتظره ؟ عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا ، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فُقْرًا مُنْسِيًّا ؟ أَوْ غَنًى مُطْعِيًّا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفْعِدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهَرًا ؟ أَوْ الدَّجَالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمْرٌ))

[الترمذي]

في المطارات بوابات ، يقول لك : البوابة رقم كذا ، وكل واحد منا له بوابة يخرج منها من الدنيا إلى الآخرة ؛ هناك بوابة حادث سير ، وبوابة مرض قلب ، وبوابة مرض خبيث ، ولا بد من الخروج من إحدى هذه البوابات ، وهي مرض الموت ، فالموت مصير كل إنسان ، ف..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ(8) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ)

2 - الناس مجموعون ليوم عظيم :

حتمية هذا الجمع ..

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(6))

(سورة المطففين)

(فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَعُوا كِتَابِيهِ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ (25) وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيهِ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ(27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ (28) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ (29) خُدُوهُ فَعُلُوهُ(30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة)

هذا يوم القيامة ، يا إخواننا الكرام ، إذا آمنا به إيماناً حقيقياً ، والله أكاد أقول لكم : لا ننام الليل سعياً لهذا العطاء الإلهي الأبدي السرمدي .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا

فهؤلاء الذين زاغت قلوبهم ، وانصرفوا إلى الدنيا ، وجمعوا أموالاً طائلة ، وربوا أولادهم تربية حديثة ، يحمل ابنه أعلى الشهادات ، يسكن في أجمل بيت ، يتزوج من أجمل امرأة ، ابن متفلس ، لكن بمنصب رفيع جداً ، معه شهادات عليا ، قال :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا)

أن يكونوا أعلاماً في الدنيا فقط ، فالأب لا ينتبه إذا صلى ابنه ، أو لم يصل ، ينتبه إذا نجح ، أو ما نجح ، يهمله نجاح ابنه ، دخل ابنه ، زواج ابنه ، تهمة الأشياء المادية فقط ، ليتباهى بها ، وأكثر النساء يهمن أنهن اخترن زوجة جميلة لابنها ، من عائلة ، بنت عائلة ، وأهلها أغنياء فقط ، أما أنها محجبة أو سافرة ، فليس هناك مشكلة ، فهؤلاء الذين جمعوا أموالاً طائلة ، وكان أولادهم في أعلى مراتب التفوق في الدنيا ، فهؤلاء ..

(لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ)

سيدنا عمر بعد أن طعن ، وبعد أن صحا قال : هل صلى المسلمون الفجر ؟ أين هو وأين الناس؟! طعن ، وعلى وشك الموت ، ما الذي أقلقه ؟ صلاة المسلمين ، أنت راقب ؛ دخلت البيت فتقول لزوجتك: أكل الأولاد ؟ كتبوا وظائفهم ، ما سألتها : هل صلوا ؟ ما أدخلت الصلاة في حساباتك ، كتبوا وظائفهم ، وأكلوا ، وناموا ، أما لو كنت تحرص على مستقبلهم الأخرى لسألتها : هل صلوا العشاء ؟ سيدنا عمر سأل : هل صلى المسلمون الفجر ؟
إذا ..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

هؤلاء الذين زاغت قلوبهم ..

(لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ)

خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها همًا :

خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها همًا ، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه ، وهو لا يشعر ، تدخل محل بيع ضخماً جداً ، ودخلت امرأة إلى المحل ، فقال : يا إلهي كم هي الحاجات التي لا يحتاجها الإنسان !! نحن أثقلنا بما يسمى بمجتمع الاستهلاك ، نحن نقيس الفقر والغنى بالأشياء الثانوية، الحاجات الأساسية مؤمنة ، فتكفي الإنسان لقمة تملأ جوفه ، وبيت يؤويه ، وقد سأل ذات مرة ملكٌ وزيره :

- من الملك ؟

- فقال له : أنت هل هناك غيرك ؟ .

- قال له : لا ، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا ؛ له بيت يؤويه ، وزوجة ترضيه ، ورزق يكفيه ، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا ، وإن عرفناه جهدنا في إحراجه .

فإذا كان للإنسان بيت يؤويه ؛ صغير ، كبير ، ملك ، أجرة ، المهم معه مفتاح بيت ، مساءً له غرفة ينام فيها ، وله رزقٌ يكفيه ، عنده وجبة طعام فهذا يكفي ، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ :

((يَا عَائِشَةُ ، هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ ؟ قَالَتْ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ ، قَالَ : فَإِنِّي صَائِمٌ ، قَالَتْ : فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَهْدَيْتُ لَنَا هَدِيَّةً ، أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ ، قَالَتْ : فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَهْدَيْتُ لَنَا هَدِيَّةً ، أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ ، وَقَدْ خَبَأْتُ لَكَ شَيْئًا ، قَالَ : مَا هُوَ ؟ قُلْتُ : حَيْسٌ ، قَالَ هَاتِيهِ ، فَجِئْتُ بِهِ فَأَكَلَ ، ثُمَّ قَالَ : قَدْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ صَائِمًا))

[مسلم ، أبو داود ، النسائي ، أحمد]

له بيتٌ يؤويه ، وزوجة ترضيه ، ورزقٌ يكفيه ، هذا ملك من ملوك الدنيا ، ليس ثمة حقوق متعلقة به ، ولا أشخاص شقوا من أجله ، فيمكن للإنسان أن يبني مجده على شقاء الآخرين ، ويبني حياته على موتهم ، ويبني غناه على فقرهم ، ويبني أمنه على خوفهم .

(كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

سنة الله في خلقه ؛ فأى إنسان أعرض ، وانحرف يعاقبه ، ويهلكه .

والحمد لله رب العالمين